العلاقات المرينية المملوكية في العصر الوسيط
قراءة في نصوص ابن الخطيب وابن خلدون

رابح المغراوي[1]

مقدمة :

أرخ كل من ابن الخطيب وابن خلدون للعلاقات الخارجية، أو بعبارة أدق العلاقات الدبلوماسية بين دولة بني مرين ودولة المماليك، على تفاوت بينهما من حيث حجم المادةِ التاريخية من جهة، ومن حيثُ كثيرٍ من تفاصيل المعلومات المتعلقة بها.

والحقيقة أنه لا ينبغي المقارنة بين ابن خلدون وابن الخطيب في هذا الأمر لأسباب لها علاقة بالانتماء الجغرافي من جهة، ولها علاقة بالتصنيف والتأليف من جهة ثانية، كما لها علاقة بالعُمر والظروف الحياتية الخاصة بكل واحد منهما من جهة ثالثة.

فابن الخطيب مثلا وإن كان مغربيا من حيث الانتماء إلى الغرب الإسلامي، فهو أندلسي الانتماء بالأصالة أكثرَ من أي انتماء آخر، وهذا ما عكسه إنتاجه على الرغم من اتساع أفقه وتنوع اهتماماته.

كذلك الأمر بالنسبة لابن خلدون فهو وإن كان مغربي الانتماء بالمولد والنشأة، فهو تونسي مغربي الانتماء، بحكم طبيعة الأوضاع السياسية والثقافية التي تميز بها المغرب منذ ظهور الدولة المرابطية إلى عهده، وهذا ما عكسه إنتاجه التاريخي أيضا.

وبهذا الاعتبار سيكون اطلاع ابن خلدون على أوضاع بلاد المغرب خاصة أكثر من اطلاع صديقه ابن الخطيب من حيثية كثيرٍ من الجزئيات والتفاصيل وبخاصة ما يتعلق بتاريخها المعاصر.

ثم إن ابن خلدون تصدى لكتابة تاريخ موسع للعالم كان حظُّ الأسد فيه لتاريخ وطنه بلاد المغرب التي نشأ فيها، وتنقل في ربوعها، بخلاف ابن الخطيب - الذي حتى في حالة اضطلاعه بكتابة تاريخ فيه شيء من التوسع الذي قد يعكس نوعا ما مستوى معرفته التاريخية المتعلقة بالعالم عامة وببلاد المغرب خاصة- فإن المقصد الذي توخاه منه لا يتفق مع التوسع في ذلك. وحتى لو سلمنا بتوسعه شيئا ما على سبيل الانجرار، فإنه اغتيل للأسف الشديد قبل أن يصل إلى تاريخ الدولة المرينية التي وعد القارئ بالتوسع في تاريخها استثناء بحكم الظروف التي وُجد فيها.

---

[1]- أستاذ التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – وجدة.

وعلى الرغم من ذلك لا يَعْدَم الناظرُ في نصوص ابن الخطيب، على قلتها، فائدة طريفة، أو إشارة لطيفة، فيما يتعلق بالعلاقات السياسية أو الدبلوماسية إذا ما قورن بابن خلدون.

بدايات العلاقات الخارجية الدبلوماسية:

وأعني بذلك البوادرَ الأولى لنشأة هذه العلاقة، والبواعثَ الحقيقية التي كانت من ورائها إن وجدت، والحيثياتِ المختلفة المرتبطة بها، والشخصياتِ السياسية أو غير السياسيةِ التي ساهمت في وجودها.

أولا: ابن الخطيب.

في هذا الأمر لا مندوحة لنا عما أتحف به ابن الخطيب، فقد أشار إشارة تستحق التنويه والتقديم لأنها تؤرخ لتواصل مبكر بين المغرب والمشرق من جهة، ولأن ابن خطيب كان له فيها رأي عبر من خلاله عن رأيه السياسي بجرأة مغربية خطيبية واضحة ومعروفة، تعكس وجها من وجوه المنافسة والندية بين المغرب والمشرق، وبخاصة من زاوية الموضوع الذي استفز ابن الخطيب للإدلاء في برأيه وموقفه كما سنعرف.

من النصوص التي دلت على رصد ابن الخطيب للعلاقات المغربية المشرقية قوله في دولة المستظهر العباسي(487هـ-512هـ/م1094م- 1118م)[1]:"وَهُوَ الذِي خَاطَبَهُ عَلِيُّ بْنُ يُوسُفَ(500هـ-537هـ)[2] أَمِيرُ لَمْتونَة، فَرَاجَعَهُ بِكِتَابٍ مَشْهورٍ عِنْدَ النَّاسِ يَأمُرُهُ فِيهِ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ"[3].

وهذا يؤكد على روح تعلق المغاربة بالمشرق، واعتراف هذه الدولة بالخلافة العباسية، الدال على مشاعر وحدة الأمة الإسلامية، كما يؤكد على قلة معرفة المشارقة بحال بعض أمراء الدول القائمة في المغرب، وما كانت عليه من قوة واستقامة أكثر

---

[1] - بعض موارد ترجمة المستظهر بالله: المنتظم، ج17، ص12 فما فوق. الكامل، ج10، ص534-536. دول الإسلام، ج2، ص39. العبر، ج4، ص26. البداية والنهاية، ج12، ص182. النجوم الزاهرة، ج5، ص215-216. تاريخ الخلفاء، ص426-431. شذرات الذهب، ج4، ص33. سير أعلام النبلاء، ج19، ص396-412.

[2] - هو الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمي ابن وارتملي بن تمليت الصنهاجي، كنيته أبو الحسن، أمه أم ولد رومية، اسمها قمر، ولد بسبتة سنة477 هـ، بويع له سنة 500هـ، امتدت على عهده الدولة المرابطية فشملت جميع بلاد الغرب الإسلامي بما فيها بلاد الأندلس، وكان إماما فاضلا عادلا مجاهدا، توفي سنة 537هـ، وقد طالت مدته في الحكم، بعد ثاني ملوك الدولة المرابطية العظام. انظر : الأنيس المطرب، ص157-165.

[3] - إعمال الأعلام، ج1، ص282.

منها، وأظن أن شيئا من هذا هو الذي سيسبب مشكلا أدى إلى فشل الدبلوماسية بين المغرب والمشرق على عهد الدولة الموحدية والدولة الأيوبية، والظاهر أنه سبب مشكلا للمشارقة أكثر من المغاربة بالنظر لما خلفه من تداعيات، وأثاره نقاش لديهم أكثر مما هو الحال بالنسبة للمغاربة، وذلك لأسباب لها علاقة بالسياسة الخارجية من جهة، وباللياقة الدبلوماسية من جهة ثانية، وبالمصطلحات والمفاهيم المتباينة من جهة ثالثة.

وهكذا لم يتمالك ابن الخطيب نفسه تجاه أمر المراسلة المرابطية العباسية هذه فعلق على موقف المستظهر العباسي، الذي راجع الأمير المرابطي برسالة يدعوه فيها إلى الخير ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، وهو أمر كان قائما به وبغيره أشد ما يكون القيام، في نظر ابن الخطيب، بما يفيد الإنكار على تصرفه، والطعن في خلافته، وإضفاء شرعيتها على هذا الملك المرابطي الذي توفرت فيه كافة شروط الخلافة أكثر من غيره وعلى رأس ذلك المستظهر العباسي نفسه صاحب الخطاب، كما عبر من جهة أخرى على عميق مشاعر الانتماء إلى مغربيته والاعتزاز بها.

يقول ابن الخطيب:" وَلَعَمْري إنَّ عَلِيَ بْنَ يُوسُفَ، رَحِمَهُ اللهُ كَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِذَلِكَ، لاسْتِبْدادِهِ، وَجِهادِهِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنْ تَدْبِيرِ مُلْكِهِ وَبِلادِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِأَمْرِ دُنْياهُ وَمَعَادِهِ"[1].

ولا بأس من التنبيه بالبيان على ما أكد عليه النص المذكور على وجازته واختصاره من مبررات تقدم علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي على المستظهر العباسي من حيثية الشروط المؤهلة للقيادة الحقيقية من منظور ابن الخطيب وهي:

1) الاستبداد وهو مصطلح سياسي إسلامي واضح، يدل على تمكن الخليفة أو الملك أو السلطان من كافة مقاليد الأمور بصورة مستقلة، يدبر شؤونه السياسية بكيفية مباشرة لا يشاركه في ذلك وزير متنفذ، ولا حاجب متسلط، وهو أمر كان متحققا للسلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين في الوقت الذي لم يتوافر للخليفة المستظهر العباسي، لأنه كان مغلوبا على أمره من قِبَل الوزراء السياسيين، والقادة العسكريين كما هو معروف.

2) الجهاد ويعني قيادة الحروب والغزوات عند مواجهة الأعداء، سواء في الداخل من أجل قمع المتمردين، وإخماد نائرة الثائرين، تحقيقا للأمن والاستقرار، أو في الخارج ويتعلق الأمر بصفة أخص جهاد النصارى المتربصين بالمسلمين في بر عدوة الأندلس المجاورة، والتي ما فتئ ملوك المغرب يُغيثونها الجنود والعتاد، كلما دعت الضرورة، وبخاصة عقب سقوط الخلافة الأموية في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري كما هو معلوم.

---

[1] - إعمال الأعلام، ابن الخطيب، القسم الأول، تحقيق: رابح المغراوي، تحت الطبع، 282-283.

ولقد ساهم الزعماء المرابطون مساهمة فعالة في هذا الباب وحققوا نصرهم الذائع الصيت على النصارى في معركة الزلاقة الشهيرة، كما وحدوا الأندلس تحت إمرتهم، وأنهوا عهد الفرقة والتشرذم الذي عرفه عصر ملوك الطوائف.

وليس مجهولا لدى المؤرخين أن القيادة العسكرية الميدانية في أغلب معارك المرابطين كانت تحت إمرة الملوك والسلاطين، وكان السلطان علي بن يوسف المذكور من أبرز القادة العسكريين لا يقل قوة وبراعة عن والده يوسف بن تاشفين.

3) التمكن التام من تدبير شؤون مملكته وبلاده التي ترامت أطرافها بعد توحيدها، فقد كان مباشرا لإدارة أمر كافة المؤسسات السياسية والدينية والإدارية التي توفرت عليها دولته لا يشاركه في ذلك إلا من أعطي له الأمر من قبله أو عين بناء على ما تقتضيه المراسم والعوائد، بما جعله مرجعا في كل الأحوال، الأمر الذي أكد على قوة شخصيته، وحيازة الشروط والمؤهلات التي تجعل منه قائدا من طراز خاص ومتميز، قلما توفر في زمانه.

4) المعرفة التامة بالشؤون الدنيوية، وهي التي أهلته للقيادة وإدارة الدولة إدارة ناجحة بامتياز، كما هو ظاهر من خلال النظر في تفاصيل المنجزات السياسية التي تحققت على يديه.

5) المعرفة التامة أيضا بالشؤون الدينية، في إشارة إلى استقامته وورعه وحسن سلوكه، وغلبة تعلقه بالشعائر الدينية وحرصه على التزامها بكيفية قلما توفرت في زعيم مثله، الأمر الذي جعل ابن خطيب ينوه بها لضعفها أو غيابها لدى كثير من زعماء عصره، وبخاصة نظيره العباسي الذي راسله فجاوبه بتلك الصيغة النمطية، التي استفزت ابن الخطيب، وأثارت غيرته وحميته استجابة لمشاعره الوطنية المغربية، وربما لموقفه الديني انطلاقا من منظور السياسة الشرعية.

وهذا الرأي الذي أدلى به ابن الخطيب في هذه المسألة، هو إلى حد ما، نفس رأي ابن خلدون في دفاعه عن موقف الموحدين من إمرة المؤمنين التي امتنع الأيوبيون من التصريح لهم بها، كما سنرى.

ثانيا: ابن خلدون.

أما ابن خلدون فقد تميز، في مسألة العلاقات الخارجية للمغرب، عن ابن الخطيب من حيث التوسع شيئا ما، ومن حيث التصريح الواعي بالتأريخ لموضوع التواصل السياسي والدبلوماسي بين الدولة المرينية ويبن غيرها من دول المشرق لأهمية ذلك في نظره وفائدته التي تقتضي الاحتفاء به.

ويقتضي الأمر في هذا المقام التأريخي، على سبيل الربط بين الماضي و الحاضر في موضوع الدبلوماسية، الإشارة إلى حالها على عهد الدولة السابقة، لما لذلك من صلة بما سيُلمع إليه ابن خلدون، وبما أفاد أيضا بانقطاعها منذ عهد بعيد.

فقد استهل ابن خلدون كلامه في موضوع الدبلوماسية المرينية بإشارته للأزمة الدبلوماسية الفاشلة التي حصلت بين السلطان صلاح الدين[1] وبين الأمير يعقوب المنصور الموحدي[2] بسبب استنكاف كاتبه وعمدته في شؤونه السياسية والدبلوماسية القاضي الفاضل البساني[3] عن مخاطبة يعقوب المنصور بلقب أمير المؤمنين.

ومن المهم كذلك والطريف أن نتعرف على رأي ابن خلدون في الموضوع، ما دام الأمر متعلقا بالعلاقات الدبلوماسية والسياسية، فهو يعكس بحق رأي المغاربة في

---

[1] - صلاح الدين أشهر من أن يعرّف به، وأخباره مبثوثة في أمهات مصادر التاريخ الإسلامي، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: النوادر السلطانية، لابن شداد، ص 6 - 248. الروضتين في أخبار الدولتين، الفتح القسي. الخريدة لابن العماد، الكامل في التاريخ، ج10، ص16 - 226. وفيات الأعيان، ج7، ص139 - 218. سير أعلام النبلاء، ج21، ص278 - 291. البداية والنهاية، ج13، ص3 - 8. النجوم الزاهرة، ج6، ص3 - 61. بدائع الزهور، ج1، ق1، ص237 - 350. تاريخ ابن خلدون، ص622 - 717.

[2] - يعقوب بن يوسف المنصور(580هـ- 595هـ): انعقدت له الولاية بعد وفاة والده سنة 580هـ. كان تام أدوات الملك، خبيرا شئون السياسة، مولعا بالعمران والتشييد. ولي الوزارة على عهد والده. خرج عليه ابن غانية في بجاية، واستولى على قلعة حماد، فتصدى له. كان معتنيا بكتب الحديث والسنة، ومنع الاشتغال بالفروع وأحرق كتبها، وكان لا يقول بعصمة المهدي بن تومرت، وكانت له مجالس علمية يحضرها العلماء والفقهاء. كاتبه صلاح الدين الأيوبي مستنجدا به في حصار عكا، فلم يلتفت إليه لعدم تلقيبه بأمير المؤمنين، أجاز إلى الأندلس برسم الجهاد سنة 585، وأجاز ثانية سنة 590هـ، فكانت موقعة الأرك الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون على النصارى وأعاد الغزو سنة 593هـ، وتوغل في بلاد النصارى توغلا لا نظير له، وكان يصرّح بغزو مصر لو امتد به العمر حيث توفي رحمه الله سنة 595هـ، وكانت العامة بالمغرب تعتقد بانخلاعه عن الملك وسياحته في الأرض واختفائه عن الأنظار، وتبعهم في ذلك المؤرخون المشارقة ما بين مصدّق وشاك، لكن المؤرخين المغاربة لا يذهبون فيه هذا المذهب.

انظر: المعجب، ص378 - 438. الحلل الموشية. الأنيس المطرب، ص216- 231. رقم الحلل، ص200- 202. مرآة الزمان، ج8، ص464. وفيات الأعيان، ج7، ص3- 19. مرآة الجنان، ج3، ص363- 366. سير أعلام النبلاء،ج21، ص311- 319. تاريخ الإسلام. البداية والنهاية، ج13، ص22. كتاب العبر، ج12، ص504- 516. الاستقصا، ج2، ص158- 204. نزهة الأنظار،ج1، ص467- 474.

[3] - هو القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني ووزير الملك الناصر يوسف بن أيوب صلاح الدين، كان إليه الأمر في جميع شئون دولته، رئيس ديوان الإنشاء في إيالته. كان إمام زمانه وعلامة عصره في الفصاحة والبلاغة، أدهش وأعجز أصحاب الفن وأرباب الصنعة. ولد سنة 529هـ، وتوفي سنة 596 هـ. انظر: كل مصادر التاريخ التي أرخت لدولة صلاح الدين الأيوبي، وهي كثيرة مثل الكامل، والنوادر السلطانية، والروضتين، ومفرج الكروب. معجم البلدان، ج1، ص527. مرآة الجنان، ج8، ص472. وفيات الأعيان، ج3، ص158. طبقات السبكي، ج7، ص166. البداية والنهاية، ج13، ص24. سير أعلام النبلاء، ج21، ص338 – 344. النجوم الزاهرة، ج6، ص156-158... الخ ، وهي كثيرة جدا.

المسألة، يقول ابن خلدون:"وكان صلاح الدين بن أيوب هادى يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام ... وبعث في ذلك رسوله ... فأكرم المنصور رسوله، وقعد عن إجابته في الأسطول لما كان في الكتاب إليه من العدول عن تحليته[أو مخاطبته] بأمير المؤمنين؛ فوجدها غصة في صدره منعته من إجابته إلى سؤاله.

وكان المانع لصلاح الذين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني، بما كان يشاوره في أموره، وكان مقيما لدعوة الخليفة العباسي[1] بمصر، فرأى الفاضل أن الخلافة لا تنعقد لاثنين في الملة كما هو المشهور، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك، لما يرون أن الخلافة ليست لقبا فقط، وإنما هي لصاحب العصبية القائم عليها بالشدة والحماية؛ والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحق"[2].

هذا وموضوع هذه السفارة وحدها يحتاج إلى بحث مستقل ومستفيض، لعله ليس من اللائق التوسع فيه في هذا المقام، وهو من الطرافة والأهمية بمكان.

ويجدر التنبيه على أن فشل هذه السفارة على عهد يعقوب المنصور الموحدي كان له انعكاس على العلاقات الدبلوماسية بين المشرق والمغرب سائر المدة الموحدية التي أعقبت حكم يعقوب المنصور، بحيث يمكن أن نسجل، كما سبقت الإشارة، توقفا أو انقطاعا استمر على المستوى الرسمي إلى أن ظهرت للوجود دولة بني مرين التي ستنتعش فيها العلاقات من جديد بين المشرق والمغرب.

كما يسجل التاريخ أن العلاقات الأخوية والدبلوماسية بين المغرب والمشرق على عهد الدولة المرينية تعد نسبيا من أكثرها وأدومها وأطولها إذا ما قورنت بالعلاقات على عهد الدول التي سبقتها وذلك لأسباب عدة لعل أهمها: ضرورة تهيئة الظروف الأمنية التي تمكن المغاربة من أداء فريضة الحج التي هي واجب من الواجبات تتطلب الحصول على الحق في أدائه بصورة ميسرة لا خضوع فيها للابتزاز السياسي، والقرصنة التي تمليها أحيانا الصراعات السياسية بين الدويلات القائمة،

---

[1] - هوأحْمَدُ بنُ المُسْتَضِيءِ بِاللهِ الحَسَن بْنِ المُسْتَنْجِدِ بِاللهِ يُوسُف، يُكْنَى أَبَا العَبَّاس، اسْتَغْرَقَتْ دَوْلَتُهُ خَمْسَةَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي عَبْدِ المُومِن بِالمَغْرِبِ؛ أَوَّلُهُمْ يَعْقُوبُ، وءاخِرَهُمْ المُلَقَّبُ بِالعَادِلِ، كانت مدة حكمه مابين سنتي 575هـ-622هـ.

بعض موارد ترجمته: الكامل، ج12، ص108-118. مفرّج الكروب، ج4، ص163 وما فوقها. تاريخ الإسلام(621هـ-630هـ) ص11-13. العبر، ج5، ص87-88. دول الإسلام، ج2، ص95. الوافي بالوفيات، ج6، ص310-316. فوات الوفيات، ج1، ص62. البداية والنهاية، ج13، ص106-107. السلوك، ق1، ج1، ص217-218. النجوم الزاهرة، ج، ص261-262. المنهل الصافي، ج1، ص264. شذرات الذهب، ج5، ص97-99. سير أعلام النبلاء، ج22، ص192-242.

[2] - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ابن خلدون، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، منشورات دار الكتاب اللبناني، طبعة سنة1979، ص: 371.

بالإضافة إلى ما يشكله انعدام الأمن من صعوبات تعترض كثيرا من الأنشطة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية كما هو معروف.

لقد حاول ابن خلدون، وقد أعطى عناية خاصة لتاريخ الدبلوماسية على عهد الدولة المرينية بحكم المعاصرة والصلة والاطلاع، أن يوثق تاريخ البعثات السفارية التي حصلت في تاريخ الدولة المرينية في مواضع عدة، إلا أن أهم ما يلاحظ عليها اتسامها، شأن كثير من التواريخ الخلدونية غير الدقيقة، بشيء من القلق والاضطراب والتداخل الباعث على اللبس والغموض الذي لا يرفعه، استنادا إلى بعض الإشارات، إلا افتراض حصول أكثر من سفارة ربما تعاقبت أو تقاربت، أو تعاقبت وتقاربت، واقترن بها كذلك تعاقب عدة ملوك مشارقة، تداخلت مدد حكمهم والتبست أسماؤهم وألقابهم لدى المؤرخين المغاربة مثل ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما بسبب بعد المسافة، ونقص المعلومات، كما نبه على ذلك ابن الخطيب نفسه.

فقد عتب كثيرا على الرحالة والزائرين من المغاربة لبلاد المشرق، بغرض الحج، عدم اهتمامهم بجمع تاريخ نافع ومفيد يتعلق بأحوال البلاد الحجازية التي عاينوها واطلعوا على كثير من مرابعها وأخبارها، في عبارة يطبعها كثير من الأسى والأسف متهما إياهم بضعف الهمم والكسل:"وَعَدَمِ تَهَمُّمِ مَنْ يَقْصِدُ تِلْكَ البلادِ المُقَدَّسَةَ بِهَذِهِ الأغْرَاضِ خُمُودًا مِنَ الهِمَمِ، وَإِخْلادًا إِلَى أَرْضِ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ يَصِلَ إِلَى تِلْكَ البِلادِ مَنْ لَهُ حَظٌّ فِي الطَّلَبِ، فَقُصَارَاهُ أَنْ يُقَيِّدَ رِوَايَةً، أَوْ يَحْفَظَ حِكَايَةً.

وَأَمَّا العِنَايَةُ بِصَاحِبِ دَوْلَةٍ أَوْ نَسَبٍ ذِي مَمْلَكَةٍ، فَقَلَّمَا تَتَّجِهُ إِلَى ذَلِكَ عِنَايَةٌ، أَوْ تَتَعَلَّقُ بِهِ رَغْبَةٌ"[1].

ويجدر التنبيه على أن أمر متابعة تاريخ العلاقات والسفارات بين المرنيين والمماليك، على سبيل الضبط والتدقيق، وبخاصة من حيثية تواريخ الذهاب وتواريخ الإياب وترتيب السفارات، وبصفة أخص تلك التي أسست لهذه العلاقات على يد ثالث ملوك بني مرين الأمير أبو يعقوب يوسف، احتاج إلى كثير من التركيز، وتحقيق، والاستنباط، والمقابلة، والموازنة بين النصوص التاريخية المتوفرة لوجود ثغرات واضطرابات لا يُستهان بها.

ثم أقول: والذي يُنخل من جميع النصوص التي أوردها كل من ابن الخطيب وابن خلدون ترجح حصول أكثر من سفارة كما سبق التنبيه.

فكم كان عدد هذه السفارات؟

وعلى عهد مَنْ مِنَ الملوك المرينيين تمت؟

ومِمّ تألفت هذه السفارات إن وجدت؟

وهل أدت أغراضها ومقاصدها كما رجت قادتها وتأمّلت؟

---

[1] - إعمال الأعلام، ج1، ص: 741.

ذلك ما حاولت معالجته في هذا البحث، متبعا منهج التسلسل التاريخي، الذي يقتضي أيضا مرعاة التعاقب السياسي لملوك الدولة المرينية لأنهم هم رعاة التواصل الدبلوماسي وعناوينه.

أولا: على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف(685هـ-706هـ)[1]:

أول ما سيلتفت إليه ثالث ملوك بني مرين السلطان أبو يعقوب يوسف لما استتب له الأمر واستشعر الأمن بعض الشيء، وبخاصة عقب استيلائه على أكثر مدن وقواعد المغرب الأوسط، العمل على تسهيل الرحلة الحجازية لركب الحاجِّ بسبب ضغوط الراغبين في ذلك من الرعية وبخاصة الكبراء والرؤساء، يقول ابن خلدون:"لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار، وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة، ومشت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفن إلى مكة، فقد كان عهدهم بَعُدَ بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول، فسما للسلطان في ذلك أمل ودخله بحرم الله وروضة نبيه الشوق"[2].

ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من النص المذكور هو فكرة بُعد عهد المغاربة بإعمال الرحلة الحجازية بصورة رسمية جماعية لها هيبتها واحتفاليتها بسبب انعدام الأمن وفساد الطرق وهو أمر يخشاه الرؤساء لأن الرحلة كانت مكلفة ومحملة بالغالي والنفيس.

كما يقرر ابن خلدون شيئا من هذا في نص فيه إضافة وزيادة يقول:"فلما انقرضت دولة الموحدين، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم، وصار كبراؤهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقية، فيتعاهدهم ملوكها بالإحسان إليهم، وتسهيل طريقهم؛ فحسن في مكارم الأخلاق انتحال البر والمواصلة، بالإتحاف

---

[1] - هو: أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، تلقب بالناصر لدين الله. ولد في سنة 638 هـ، وبويع له بالخلافة في الجزيرة الخضراء يوم وفاة والده سنة 685 هـ، وكان في المغرب واستدعي إلى الأندلس، وجمع أمره، ودان له الناس بالطاعة، واستقامت أحواله، وسار في الرعية سيرة عادلة، وأزال كثيرا من مظاهر الظلم والفساد، وأجاز إلى الأندلس برسم الجهاد، وكانت له هناك مواقف مشهورة. وصالح سلطان غرناطة على عهده، وكذلك ملك قشتالة، واستقامت العلاقات. ونشبت على عهده اضطرابات سياسية داخلية من قبل المنافسين والمناوئين من القرابة وغيرهم وعلى رأسهم بنو عبد الواد الذين حاصرهم في مدينتهم تلمسان حصارا شديدا حتى استسلموا صاغرين، ودخل المدينة. مات هذا السلطان مقتولا غيلة بيد خصي من فتيانه ستة 706 هـ. انظر: الأنيس المطرب، ص 364 - 388. اللمحة البدرية، ص 55 و ص 64. الإحاطة، ج 4، ص 356 - 358، و ج1، ص 563. كتاب العبر، ج 13، ص 436 - 485. الاستقصا، ج3، 66 - 91.

[2] - العبر، ج13، ص:468.

والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية؛ فسُنّتْ لذلك طرائقُ وأخبارٌ مشهورة، من حقها أن تذكر"[1].

أما ما يمكن استخلاصه من فحوى النص المذكور، فهو التأكيد على لعب الكبراء والرؤساء، ممن مت بصلة إلى الدولة المرينية، وبفضل تعهدهم الزيارة إلى بيت الله الحرام، وما يقتضيه الأمر من التصرف في حقهم، بما يليق بمقامهم، بالتوسط لدى الدول التي في طريقهم، من أجل حمايتهم، وتيسير سبيلهم.

ولا أدل على التوسط والشفاعة من المخاطبة والإهداء، تلك التي ستبعث أريحية الطرف الآخر على الرد بما يعبر من خلاله على همته، وجاهه، وأبهة ملكه، وعلو شأن دولته، حسب ما تقتضيه التقاليد والأعراف الدولية في تلك الأزمنة، فكان ذلك ذريعة للوُصْلَة، وتبادل الزيارات، حسب الظروف والإمكانيات كما سنرى.

هذا فيما يتعلق بابن خلدون، فماذا عن ابن الخطيب في هذا الشأن؟

لا نتوفر في هذا الشأن إلا على نصين اثنين، أحدهما عام لا كبير طائل من ورائه من الناحية التفصيلية، بيد أنه أشار إلى ذيوع شهرة السلطان أبي يعقوب يوسف على مستوى العالم بما جعله وجهة لوجوه ملوك عصره شرقا وغربا يتقربون إليه بالرسائل والهدايا، وثانيهما هو الآخر مختصر لكنه مهم للغاية، لأنه يؤكد قول ابن خلدون من جهة، ويسلط الضوء على بعض ما سنعتمد فيه على ابن خلدون خاصة بحكم تفرده بالمادة من جهة ثانية وبخاصة حينما يلتبس الأمر بالنسبة لأسماء الملوك المشارقة، وتداخل تواريخ السفارات.

أما الأول فجاء في ثنايا ترجمته له في "الإحاطة" حيث قال فيه:"و عَظَّمَتْه الملوكُ شرقا وغربا، ووَرَدَتْ عليه الرسلُ والهدايا من كل جهة"[2].

وأما النص الثاني فورد في ثنايا ترجمته للملك المنصور الملوكي(678هـ-689هـ)[3]، حيث جاء فيه:"وجرت بين الملك المنصور قلاون، وبين الملوك الكرام من بني مرين قدسهم الله المهاداة"[4] فيذكر بعض المحتويات النفيسة التي تضمنتها الهدية، ثم يشير إلى من تولى مهمة إيصالها بما يوحي بالأهمية والاحتفاء المخصوص من

---

[1] - كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص: 371.

[2] - الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4،ص: 357.

[3] - بعض موارد ترجمته: النجوم الزاهرة، ج7، ص292 - 396. المنهل الصافي. فوات الوفيات، ج2، ص269. نهاية الأرب، ج29، ص49. شذرات الذهب، ج5، ص409. عقد الجمان، ج2، ص223 - 394. وج3، ص9 - 22. درة الإسلام، ص97. تذكرة النبيه، ج1، ص48 - 135. كنز الدرر، ج9، ص301. تالي كتاب وفيات الأعيان، ص129. مرآة الجنان، ج4، ص157. عيون التواريخ، ج21، ص223 فما فوق. ذيل مرآة الزمان، ج4، ص2 فما فوق. سكردان السلطان، ص370، وص375 فما فوق.

[4] - ج1، ص: 741.

الجهة المصرية، فيقول:" وكان الذي تولى إيصالها رسول الملك المنصور عند قفوله بجواب رسالته إليه، وهو سيف الدين بَكْتَمُر [1] الجوكَنْدار[2]، وكان عزيزا على الملك المنصور قلاون، يخاطبه بالعمومة"[3].

ولا بد من التنبيه على أن المعلومات التي يذكرها ابن الخطيب هنا فيما يتعلق بالأسماء، سواء تعلق الأمر باسم الملك المملوكي أو باسم السفير، لا أثر لها في نصوص ابن خلدون، بيد أن هنالك تقاربا كبيرا فيما يتعلق ببعض محتويات الهدية لكن السياق الذي وردت فيه لدى ابن خلدون لا يوحي بالكلام عن نفس السفارة، بما يومئ إلى الاضطراب.

لكن القرائن تدل أن ابن الخطيب ربما يكون قد جانب الصواب حينما ذكر أن المخاطبة على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف كانت بينه وبين الملك المنصور وذلك للأسباب الآتية:

1) أن ابن خلدون أشار في أكثر من موضع، كما رأينا في النصين السابقين، أن النشاط الدبلوماسي إنما استؤنف بين المغرب والمشرق على عهد الدولة المرينية عقب استيلاء السلطان المريني المذكور على تلمسان عاصمة بني عبد الواد وما يتبعها من المدن والقواعد، وهو رأي وجيه يعضده المنطق والواقع لأن تلمسان هي نقطة عبور إستراتيجية لا مندوحة عنها، ولا ينبغي أن تكون بيد أعداء بني مرين، لأن ذلك يحول دون مصالحهم السياسية والاقتصادية وغيرها، والذي يعد الحج من أهم المصالح التي ينبغي حمايتها.

وهذا ما سيتأكد لاحقا حينما نتعرف على أثر خروج تلمسان عن يد الملوك من بني مرين على النشاط الدبلوماسي بين المغرب والمشرق.

---

[1] - بكتمر: هو الأمير سيف الدين، بكتمر بن عبد الله الجوكندار، كان أحد الأمراء العظام أيام سالار وبيبرس الجاشنكير، ثم أخرجاه إلى قلعة الصُّبَيْبَة نائبا، ثم نقل إلى نيابة صفد، ولما قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون عينه نائب السلطنة بالديار المصرية. توفي في سنة 711هـ. موارد ترجمته: الدليل، ج1، ص194. عقد الجمان، ج5، حوادث سنة 711هـ. أعيان العصر، ج2، ص108. الوافي، ج10، ص198. الدرر، ج2، ص18. السلوك، ج4، ص102. سنة 711هـ. بدائع الزهور، ج1، ص1، ص440. النهج السديد، ج3، ص200. كنز الدرر، ج9، ص218. المنهل الصافي، ج3، ص398 - 401. تذكرة النبيه، ج2، ص20، وص 39.

[2] - الجوكندار: مصطلح فارسي مركب من لفظين هما: الجوكان، وهي معقوفة الطرف مقفعة، معدة لعب الكرة، ودار معناه: ممسك، والجوكندار: لقب يطلق على الذي يحمل الجوكان مع السلطان للعب الكرة، وظهر هذا المصطلح منذ العصر الأيوبي، وهذه اللعبة من الرياضات التي كان يواظب على ممارستها سلاطين الدولة الأيوبية والمملوكية. انظر: صبح الأعشى، ج5، ص430. ومعجم المصطلحات، ص131.

[3] - إعمال الأعلام.

2) أن المدة التي حكم فيها الملك المنصور قلاون(678هـ-689هـ) لا تتوافق كثيرا مع المدة التي حكم فيها السلطان أبو يوسف يعقوب(685هـ-706هـ)، إذ بناء على المقابلة بين المدتين، والموازنة بين التاريخين، تكون مدة التقاطع والالتقاء لا تتجاوز أقل من أربع سنوات، فهي مدة قليلة بالنسبة للسلطان المريني إذا ما قورنت بالمدة التي انقضت من مدة حكم الملك المنصور قلاون، ثم إنها تشكل مرحلة بدايات الملك التي تتطلب التركيز على توطيد أركان الملك الداخلية القريبة، ولا تمكن الحاكم في تلك المرحلة من تأسيس العلاقات الخارجية لأن هنالك أولويات أخرى أهم من ذلك.

وهذا الأمر يؤكده متابعة الأحداث السياسية المختلفة التي كان المغرب يمر بها في تلك الفترة المضطربة القلقة، مع العلم أيضا أن العلاقات المغربية الأندلسية كانت تمر بظروف حرجة، وللمغرب هنالك مصالح إستراتيجية مهمة لا تنكر.

3) أن مصر على عهد الدولة المملوكية في الفترة التي أعقبت حكم الملك المنصور المذكور بدءا من سنة 689هـ ستعرف موجات متعاقبة من القلاقل والاضطرابات السياسية الداخلية بسبب الصراع على الملك أسفرت عن تعاقب عدة ملوك وأمراء قصرت مدة حكمهم إلى حد كبير جدا، كما عرفت تولي أحد الملوك الشرعيين، وهو الملك الناصر محمد بن قلاون، الملك ثلاث مرات ما بين مدد متفاوتة كانت آخرها طويلة ومستقرة.

وحتى يتبين الأمر للقارئ أكثر أذكر أسماء الملوك المماليك مقرونة بمدد الفترات التي حكموا فيها ليسهل التصور، وتتيسر المقارنة:

أ. الملك المنصور قلاون (678هـ-689هـ).
ب. الملك الأشرف خليل (689هـ-693هـ).
ت. الملك الناصر محمد بن قلاون (693هـ-694هـ)، وهي الولاية الأولى.
ث. الأمير كَتْبُغا (694هـ-696هـ).
ج. الملك المنصور لاجين (696هـ-698هـ).
ح. الملك الناصر محمد بن قلاون (698هـ-707هـ)، وهي الولاية الثانية.
خ. الأمير بيبرس المظفر (708هـ- 709هـ).
د. الملك الناصر محمد بن قلاون (709هـ-741هـ).

فهذه إذاً ثمانية ولايات تعاقب فيها سبعة ملوك وأمراء، استغرقت مدة حكمهم الإجمالية عشرين سنة بمعدل نسبة سنتين ونصف لكل واحد بعد إجراء العملية الحسابية لاستخراج النسبة، وهي حاصل عشرين مقسومة على ثمانية.

4) وهنالك أمر آخر يمكن إضافته لمزيد من البيان، وكذلك للتأكيد على بُعد احتمال أن تكون المراسلة التي ذكرها ابن الخطيب قد تمت بين السلطان أبي يعقوب يوسف والملك المنصور قلاون، وهو أن شروع السلطان المريني في غزو تلمسان حجر العثرة في طريق حركة التنقل بين المشرق والمغرب سيبتدئ من سنة 695هـ، ثم

سيشتد الشدة التي ستسقطها بعد حصار دام عدة سنوات بدءا من سنة 698هـ، وهذه كلها تواريخ لا تتوافق مع فترة حكم الملك المنصور قلاون، الأمر الذي يؤكد وهم ابن الخطيب في الاسم، مع صحة بعض مكونات إحدى الهدايا المبتعثة.

السفارة الأولى: تاريخها ومكونات طاقمها.

أ. تاريخ انطلاقها ورجوعها: (ما بين سنة 700هـ وسنة 704هـ)

- تاريخ الذهاب:

بعد هذه التفاصيل المساعدة التي ذكرت نستطيع أن نقدر تاريخ السفارة الأولى على سبيل الاحتمال والتخمين، استنادا إلى معطيات انفرد بذكرها ابن خلدون على صعوبة تمحيصها وترتيبها ترتيبا زمنيا محكما.

فقد أرخ في موضع من كتابه العبر عقب حديثه عن السفارة المتضمنة لنسخة المصحف الشريف الذي سيأتي وصفه، وما رافقه من هدايا، من دون إشارة إلى نظير بقوله:"وبعث به [المصحف الشريف] مع الحاج سنة ثلاث [وسبعمائة]"[1].

أما في كتاب "التعريف" فقد ذكر تاريخا متقدما عن التاريخ المذكور حيث قال:"وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة، وهو يومئذ الناصر بن[2] محمد بن قلاون، هدية ضخمة، أصحبها كريمة من كرائم داره، احتفل فيها ما شاء"[3].

ثم أشار في موضع آخر من كتاب العبر، وهو نص له صلة بالنص المذكور آنفا، متصل بسياق الحديث عن سفارة المصحف الشريف، والذي أشار إلى أنه بُعث به مع الحاج سنة 703هـ، حيث قال:" فأجمعوا الحج سنة أربع بعدها [704هـ]... وفصَلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول، وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مَقْدَمُ الحاجِّ الأولين حَمَلَةِ المصحفِ"[4].

ولا شك أن عبارة آخر النص المقتبس، والتي تشير إلى أن سفارة 704 هـ التي أُعِدَّت للسفر منذ سنة 703هـ، والتي قد خرجت من تلمسان في شهر ربيع الأول، أعقبها في الشهر الموالي، شهر ربيع الثاني من نفس السنة، رجوع البعثة السفارية المحملةِ بالمصحفِ الشريفِ عائدةً من مصر.

---

[1] - العبر، 13، ص: 468.

[2] - أخطأ ابن خلدون في الاسم، أو حصل تحريف، والصحيح حذف "بن" فيكون الاسم الصحيح كما أثبتته المصادر المشرقية الموثقة هو: الناصر محمد بن قلاون.

[3] - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص: 371-372.

[4] - كتاب العبر، ج13، ص: 446-449.

وهذا يؤكد على الخلل في نص ابن خلدون، وقد يشي باحتمال حصول تصحيف أو تحريف في التواريخ كما يحصل عادة، هذا إذا نزهنا ابن خلدون عن الوهم أو الخطإ لبعد الزمن وانعدام مظان التوثيق.

واستجابة لهذه النتيجة، ليس أمامنا إلا افتراض تقدم تاريخ سفارة المصحف إلى سنة 700هـ التي أشار إليها ابن خلدون في النص آنف الذكر والوارد في كتابه "التعريف بابن خلدون"، والذي هو من أواخر ما كتب، وهو أيضا أمر يقوي الافتراض ويدعم الاحتمال.

كما لا يعقل أن تحصل سفارتان في مدة متقاربة مثل المدة التي أُشير إليها في نص ابن خلدون، مع العلم أنه لم يكن من وظائف البعثات الدبلوماسي أن تقتصر على تبليغ الرسالة والهدية والعودة على جناح السرعة، وإنما قد يكون من مظاهر الكرم التي تتعين على المضيف تجاه ضيفه الترخيص له بإعمال الرحلة داخل ربوع المملكة للاطلاع على الأحوال كما كان يفعل سلاطين المغرب تجاه الأمراء المشارقة الوافدين عليهم.

ثم نعتقد أيضا أنه حتى ولو لم يكن للسفارة من وظيفة إلا قضاء فرض السفارة، وما يتعلق بها من مراسيم الضيافة، ثم أُضيف إليه مدة السفر ذهابا وإيابا في ركب رسمي حركته لا شك بطيئة، فإن ذلك يقتضي، لا ريب، من الوقت الشيء الكثير نسبيا، وهذا أيضا مما يقوي احتمال تقدم تاريخ السفارة كما مر.

- تاريخ الإياب:

أما عن تاريخ رجوع السفارة فقد يكون أحسن حالا من تاريخ ذهابها من حيث استنباط معرفته بشكل أكثر دقة، مقارنة مع تاريخ الذهاب الذي أشكل علي، وذلك لسبب بسيط وهو أن ابن خلدون أشار إلى تاريخ الرجوع عرضا ضمن حديثه عن تاريخ ذهاب السفارة الثانية، وذلك حينما قال:"وفي شهر ربيع الآخر بعده [بعد ربيع الأول من سنة 704هـ] كان مقدم الحاجِّ الأولين حملة المصحف"[1].

ب. مكونات طاقمها :

تدل القرائن التاريخية المتوفرة المتعلقة بوصف ما اشتملت عليه على أنها كانت نفيسة للغاية، ومتعددة المحتويات، وهذا يتنافى مع المبالغة المحتملة، لأن المقام مقام التأسيس للعلاقات الأخوية، والهدية أيضا هي عنوان الدولة المؤسسة، ورمز الأبهة الملوكية، إذ من خلالها يقاس غنى الدولة، وقوة جنابها، وسمو سؤددها، فما هو إذاً مُشْتَمَلُ هذه السفارة والهدية المؤسِّسَة؟

---

[1] - العبر، ج13، ص: 469.

لا بد إذا من الاستئناس في هذا الأمر بما جلبه ابن الخطيب في وصفه للهدية وما تألفت منه من الأشياء والأشخاص يقول:"... فبعث إليه أمير المسلمين أبو يعقوب هدية مشتملة على خيل عديدة، وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل وجمل بلغت سبعمائة دابة"[1].

أما ابن خلدون فقد اختلفت إشاراته وتباينت لديه مكونات ما تضمنته الهدية تباينا كبيرا، كما أن فيها زيادات كثيرة، وتفاصيل وافية، بما في ذلك المصحف الطريف، الذي لم يشر إليه ابن الخطيب البتة بما دل على الخلل الواضح المؤكد على الأمر يتعلق بهديتين متباينتين لديهما.

المصحف المُحلَّى:

كما دل مُتَضَمَّنُها المبالغ فيه على عظيم التنويه بها، ولا أدل على ذلك من صفة المصحف الشريف الذي أعد لغرض السفارة والهدية، فقد عكس الحُرْمة والقداسة المكنونة من جهة، كما عكس صورة من الصور الراقية في إخراج المغاربة للكتاب، وبخاصة إذا كان عزيزا على أنفسهم مثل كتاب الله عز وجل من جهة ثانية، فصدر الأمر من قِبَل السلطان لأحد كتاب دولته "بانتساخ مصحفٍ رائق الصَّنْعَةِ، كَتَبَهُ ونَمَّقَهُ أحمد بن حسن الكاتبُ المُحَسِّنُ، واستَوْسَعَ في جِرْمِهِ، وجَعَلَ غِشاءَهُ من بديع الصَّنْعَةِ، واستَكثَرَ فيه منْ مَغَالِق الذَّهبِ المُنَظَّمِ بخَرَزاتِ الدُّرِّ والياقوتِ، وجُعلتِ منها حَصاةٌ وسط المِغْلَق تَفوتُ الحَصَياتِ مِقدارا وشكلا، واستكثَرَ منَ الأصْونَةِ عليه، ووَقَفَهُ على الحَرَمِ الشريفِ"[2].

ولا شك أنه كان، إلى جانب هذا المصحف الشريف الذي وقف على الحرم الشريف خاصة، هدايا أخرى نفيسة خُص بها ملوك مصر الذين كانت له الولاية على الحرمين الشريفين، وعلى رأسهم الملك الناصر محمد بن قلاون، وكذلك هدايا أخرى خُصَّ بها أمراء مكة والمدينة مثلما دلت قرائن النصوص.

إلا أنه عندي شك في أن تكون أعيان التحف والطرف وسائر ما تضمنه الوصف الذي أعقب وصف المصحف الشريف لدى ابن خلدون هي نفس مكونات هدية المصحف، وأزعم أنه ربما حصل تداخل في المعلومات لديه، وذلك للسبب المذكور آنفا من أمر تقاطع خروج سفارة المصحف مع رجوع سفارة المصحف، فهذا تناقض واضح.

---

[1] - إعمال الأعلام، ج1، ص: 638-639.

[2] - العبر، ج13، ص: 468.

ت : ما رجعت به :

من الطريف أن نقف على ما رجعت به هذه السفارة، وهي سفارة طغى عليها من البداية إلى النهاية هاجس الحج ومقدساته وما يتعلق بذلك بدءا من المصحف الشريف الذي ذكر وانتهاء بما سيذكره ابن خلدون عندما تحدث عما رجعت به هذه السفارة شبه المؤسِّسَة للعلاقات بالمشرق من أجل تسهيل ركب الحاجِّ كما مر في أكثر من موضع، وهو أمر قد يرجح شيئا ما ما سأذهب إليه من رأي فيها.

يقول ابن خلدون:" وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاجِّ الأولين حملة المصحف ووفد معهم على السلطان الشريف لبيدة بن أبي نمى نازعا عن سلطان الترك لمَّا تَقَبَّضَ على أخويه حميضة ورميثة إثر مهلك أبيهم أبي نمى صاحب مكة سنة 701هـ"[1].

وإذا جاز لي أن أعلق على هذا النص بما قد يسلط بعض الضوء على ما نبهت عليه من اللبس والإشكال الذي اقترن بها، فهو زعم احتمال تركيز وجهة هذه البعثة السفارية المرينية إلى القائمين على الحرمين الشريفين خاصة لأن الظروف السياسية في مصر كانت مضطربة بسبب خلع الملك الناصر أكثر من مرة إلى أن استقر الأمر في يده نهائيا، وبدأ يوطد ملكه بالانتقام من كل من حالف أعداءه، يؤكد هذا عدم ورود أي إشارة لها صلة بملوك مصر من المماليك كما سنرى في بقية النص، الأمر الذي يغلب الظن بأن السفارة الحقيقية التي ستوثق العلاقات الدبلوماسية بين المرينيين والمماليك، وتمهد سبيل الحاج بشكل رسمي وقوي هي السفارة الثانية التي يأتي الحديث عنها.

هذا وسيتبين هذا الأمر أكثر عند الحديث عن السفارة الثانية.

أما بقية النص الموعود به والمؤكد ما ذكر فهو قول ابن خلدون مشير إلى ما آل إليه أمر الضيف الشريف الوافد على المغرب من الديار المقدسة، و ما خص به من أنواع المبرة والتكريم بالتجوال والسياحة في ربوع المغرب عادة التزمها المرينيون مع الضيوف النازلين بربوع بلادهم من المشارقة أو الأندلسيين أو غيرهم يقول:"فاستبلغ السلطان في تكريمه، وسَرَّحَهُ إلى المغرب ليجول في أقطاره، ويطوف على معالم المملكة وقصوره، وأوعز إلى العمال بتكريمه، وإتحافه كلٌّ على شاكلته. ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس(705هـ)، وفَصَلَ منها إلى المشرق، وصَحِبَهُ من أعلام المغرب أبو عبد الله فوزي حاجا"[2]

[1] - العبر، ج13، ص: 469.
[2] - العبر، ج13، ص: 469.

السفارة الثانية: تاريخها ومكونات طاقمها.

مقدمة:

هذه السفارة التي نعدها ثانية بناء على ما أدى إليه التخمين والتحقيق هي أيضا سفارة كانت على عهد السلطان أبي يوسف يعقوب المريني، ونعدها من أحفل السفارات وأكبرها، كما نعدها مؤسِّسَة للعلاقات المرينية المملوكية التأسيس الحقيقي الذي ستنبني عليه العلاقات اللاحقة بين البلدين.
كما أعتقد أنها هي المقصودة في مصادر التاريخ بالذكر والتنويه وبخاصة لدى المؤرخين المغاربة مثل ابن الخطيب وابن خلدون.

أ. تاريخ انطلاقها ورجوعها: (ما بيت سنة 703هـ وسنة 705هـ)

- تاريخ الذهاب:

إذا كان أمر التأريخ للسفارة الأولى قد استشكل علينا كما استشكل علينا ما علق بها، فإن الأمر بالنسبة للسفارة الثانية يختلف إلى حد كبير، بحيث نستطيع تحديد تاريخ انطلاقها وتاريخ إيابها حتى بالنسبة للشهور، وذلك بفضل ابن خلدون دائما لأنه هو العمدة في ذلك تقريبا، بما اضطلع به من تأريخ للعلاقات الدبلوماسية بين المغرب المريني وغيره من الدول بشكل واع وصريح، وبما ساهم أيضا في تثبيت هذه العلاقات كما سنرى، ولذلك سوف لن يطول بنا النقاش والتحقيق كما حدث بالنسبة للسفارة السابقة.
صرح ابن خلدون بصورة واضحة بتاريخ الإجماع أولا على إعمال الرحلة إلى الحج، ولا شك أن هذا تم بعد أن تحقق ترتيب كثير من الأمور، إلا أنه اكتفى بالإشارة إلى العام فقط فقال:"وأجمعوا الحج سنة أربع بعدها [بعد سنة هـ703]"[1].
كما صرح أيضا بتاريخ خروجها من تلمسان مع ذكره في هذه المرة الشهر، إلا أنه سكت عن السنة لأنها مذكورة ضمنيا في السياق على عادته وعادة كثير من المؤرخين القدماء، يقول:"وفَصَلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول[704هـ]"[2].

- تاريخ الإياب:

وكذلك الأمر بالنسبة لتاريخ رجوعها فقد صرح ابن خلدون بالشهر والسنة في نسق واحد حينما قال:"ولشعبان من سنة خمس[705هـ] وصل أبو زيد الغفائري دليلُ

---

[1] - العبر، ج13، ص: 468.
[2] - العبر، ج13، ص: 468.

ركبِ الحاجِّ الآخرين"[1] في مقابل الحاج الأولين الذين ذكروا آنفا في السفارة الأولى، أما الدليل الغفائري المذكور فتأتي الإشارة إليه عند الحديث عن مكونات السفارة وطاقمها كما فعلنا مع السفارة السابقة.

ب. مكونات طاقمها:

جاءت الإشارات الواصفة لتفاصيل هذه السفارة وافية أيضا لدى ابن خلدون، سواء تعلق الأمر بمكوناتها المادية، أو بمكوناتها المعنوية المتمثلة في الشخصيات التي تولت قيادتها، أو القيام ببعض وظائفها الشرعية أو العسكرية إلى غير ذلك مما سنتعرف عليه.

كما يجدر التنبيه، كما تمت الإشارة، على أنها هي السفارة المؤسسة للعلاقات بين المغرب المريني، ومصر المملوكية، وعلى هذا الاعتبار نعدها أول سفارة رسمية حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من دلالات، وذلك من خلال ما أكدت عليه إشارات نص ابن خلدون المهمة والمفيدة.

ولما كان النص غاية في الأهمية سأورده على شكل نقاط أساسية وأخرى فرعية ليسهل استيعابه نقطة نقطة، يقول ابن خلدون:"

1. وعُنِي بشأن هذا الركب.
2. فسرح معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة من الأبطال.
3. وقلّد القضاءَ عليهم محمدُ بن زغبوش من أعلام أهل المغرب.
4. وخاطب صاحب الديار المصرية، واستوصاه بحاجِّ المغرب من أهل مملكته.
5. وأتحفه بهدية من طُرف بلاد المغرب:
   أ. فاستكثر فيها من الخيل العراب،
   ب. والمطايا الفارهة، يقال: إن المطايا كانت منها أربعمائة، حدثني بذلك من لقيته.
   ت. إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وماعونه...
6. وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفائري"[2].

كما أشار إليها ابن خلدون في كتابه "التعريف" لكن باقتضاب أكثر مما ذكر في كتابه العبر أذكره أيضا على شكل نقاط، يقول:"

1. وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين(685هـ-706هـ)، أهدى لصاحب مصر ... وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاوون.
2. هدية ضخمة.

---

[1] - المصدر السابق، نفس الموضع.

[2] - العبر، ج13، ص: 468.

3. أصحبها كريمة من كرائم داره.
4. احتفل فيها ما شاء من أنواع الطرف، وأصناف الذخائر، وخصوصا الخيل والبغال.
5. أخبرني الفقيه أبو إسحق الحسناوي، كاتب الموحدين بتونس [يقصد الحفصيين]، أنه عاين تلك الهدية عند مرورها بتونس، قال: وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعمائة، وسكت عما سوى ذلك.
6. وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب، أبو الحسن التنسي كبير أهل الفتيا بتلمسان."[1].

وأظن جازما استنادا إلى قرائن عدة أن هذه السفارة والهدية هي نفسها التي قصدها ابن الخطيب في كتابه"إعمال الأعلام" حينما قال:"فبعث[أبو يعقوب يوسف] إليه[الملك الناصر] هدية مشتملة على خيل عديدة، وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل وجمل بلغت سبعمائة دابة"[2].

ت. ما رجعت به السفارة:

أما ما رجعت به هذه السفارة فلا يقل أهمية عما ذهبت به وإن لم تأت فيه النصوص الخلدونية طويلة مثل النصوص المتعلقة بسفارة الذهاب، إلا أن ما ذكر على قلته دل على نجاح السفارة وبلوغ الغاية في الوُصلة، وتأكد العزم على التواصل بين الطرفين، أكد على ذلك التجاوب المتبادل من خلال المظاهر الآتية:

1) أن السفارة المشرقية المُراجِعَةِ، إن صح التعبير، تألفت هي الأخرى من مكونات مادية تتعلق بالهدايا والتحف، ومن مكونات معنوية تتعلق ببعض الشخصيات السياسية الكبيرة.

2) أن الوساطة المرينية بقيادة السلطان أبي يعقوب يوسف، بين الدولة المملوكية في شخص الملك الناصر وبين أمراء مكة قد نجحت في حل مشكلة الشنآن وسوء التفاهم الذي حصل بينهم بسبب الخلع المتكرر الذي حصل للملك الناصر، وتحول الوْلاء الذي كان ينحرف إلى غيره من أعدائه، بفعل المتمردين والانقلابيين من حاشية المُلك، وهو الملك الشرعي بلا خلاف.

3) أن الهدية المشرقية الواردة هي هدية مزدوجة تضمنت الهدية المصرية وهدية الأمراء من أهل مكة، ولعل أعظم هدية خص بها هذا السلطان المغربي المريني هي نص بيعة الشرفاء من أهل مكة المكرمة كما سنرى من خلال النص الخلدوني المقتبس.

---

[1] - التعريف، ص: 371- 372.
[2] - إعمال الأعلام، ج1، ص: 639.

يقول ابن خلدون مفصحا عما كان من جهة أمراء مكة، أذكره على شكل نقاط لأجل البيان والإيضاح:"

أ. ولشعبان من سنة خمس[705هـ] وصل أبو زيد الغفائري دليل ركب الحاج الآخرين.

ب. ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان، لما آسفهم صاحب مصر بالتقبض على إخوانهم.

ت. وكان شأنهم ذلك حتى غاضبهم السلطان ...

ث. وأهدى السلطانَ ثوبا من كسوة البيت شغف به واتخذ منه ثوبا للباسه في الجمع والأعياد، يستبطنه بين ثيابه تبركا به"[1].

أما في شأن الجهة المصرية فيقدم ابن خلدون نصه الآتي أذكره هو الآخر على شكل نقاط لنفس المقصد، يقول:

أ. "ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهده الملك الناصر محمد بن قلاون الصالحي:

ب. حسن موقعها لديه.

ت. وذهب إلى المكافأة من طرف بلاده: من الثياب والحيوان ما يُستغرب جنسه وشكله من نوع الفيل والزرافة.

ث. وأوفد بها من عظماء دولته الأمير التليلي.

ج. وفصل من القاهرة أخريات سنة خمس[705هـ].

ح. ووصلت إلى تونس في ربع من سنت ست[706] بعدها.

خ. ثم كان وصولها سدة السلطان بالمنصورة من البلد الجديد في جمادى الآخرة.

د. واهتز لها السلطان لقدومها، واستركب الناس للقائها، واحتفل للقاء الأمير التليلي ومن معه من أمراء الترك، وبر وفادتهم، واستبلغ في تكريمهم نزلا وقِرى.

ذ. وبعثهم إلى المغرب على العادة في مبرة أمثالهم"[2].

كما أشار ابن خلدون إلى هذه السفارة المصرية في كتابه "التعريف" لكن بإيجاز شديد لا يخلو هو الآخر من فائدة، يقول:"ثم كافأ الناصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل مع أميرين من أمراء دولته، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان، فبعثهما إلى مراكش للنزاهة في محاسنها"[3].

---

[1]- العبر، ج13، ص: 469.

[2] - العبر، ج13، ص: 469-470.

[3] - التعريف، ص: 372.

وهذين الأميرين الكبيرين الذين رافقا السفارة المصرية المذكورين في هذا النص، أو الأمير المذكور في خاتمة النص المتقدم لا أشك في أن واحدا منهما هو نفسه الشخصية التي نوه ابن الخطيب بنباهتها وسموها، وعظيم صلتها بالملك المملوكي، ومخاطبتها له بالعمومة كما مر عند إشارته إلى هذه السفارة على الرغم من اضطراب القول فيها لديه كما نبهت على ذلك في موضعه.

وهكذا يتأكد إذاً ما ذهبت إليه من أمر تغليب الظن بأن السفارة الثانية هي السفارة المؤسِّسَة على الحقيقة للعلاقات الدبلوماسية بين المغرب والمشرق، فقد كانت كبيرة بحجم مكوناتها المادية والمعنوية كما عرفنا، كبيرة بحجم الاستجابة المشرقية من جهة مكة ومن جهة مصر، كبيرة من جهة عكسها معاني الاحترام والتقدير المكنون للجهة المغربية.

عودة السفارة المصرية ومصيرها:

قد عرفنا أن السلطان المريني أبا يوسف يعقوب لما استقبل السفارة في "تلمسان" أثناء حصاره الطويل لها، واحتفل بقدومها بما يليق بمقامه ومقامها، أذن لوفد السفارة، على عادة الدولة في معاملة الضيوف الزائرين، في الانتقال إلى ربوع مراكش للنزهة والفسحة ومقابلة الأعيان، والنيل من كرمهم وقراهم.

ولقد حصل للسلطان في غيبتهم، في ربوع مراكش، ما لم يُتوقع في الحسبان، لسوء حظهم، حيث قُتل غيلة وهو نائم في خلوته بقصره بتلمسان الجديدة، يوم الأربعاء لسابع من ذي القعدة سنة 706هـ من قِبَل أحد مماليكه الخصيان طعنه بخنجر طعنات عدة أودت بحياته قريبا.

ولكن على الرغم من المصيبة بهلاك السلطان الذي توجهت باسمه السفارة المشرقية، لم يُقصِّر خَلَفُه من بعده وحفيدُه السلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف المريني[1] وهو الذي لم يعمر في الملك إلا أقل من سنة ونصف(706هـ-708هـ)، حيث صرفهم مبرورين سنة بعد هلاك جده، يقول ابن خلدون في ذلك: "وتقبل أبو

---

[1] - هو أبو عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق. ولد سنة 683هـ، وبويع له بعد وفاة جده في تلمسان سنة 706هـ. لم يحكم إلا سنة وبضعة أشهر. صالح الأمير أبا زيان العبد الوادي، وسلم له جميع البلاد التي أخذت منهم ماعدا تلمسان الجديد، ثم رجع إلى المغرب بعد مشاورة وإجماع. خرج عليه قائده على مدينة مراكش، فاستأصل شأفته. وكان جريئا سفاكا للدماء. طاف في البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا لإصلاح أحوالها، وتسكين فتنها، وقطف رؤوس المتورطين و الطامعين في زعزعة أمن البلاد من الأقارب والمشايخ. من أهم منجزاته بدؤه في بناء تطوان، بيد أن الموت عاجله وهو في طنجة ينتظر جواب رسوله إلى ابن الأحمر، يدعوه إلى التنازل عن سبتة، وكان ذلك سنة 708هـ. انظر: الأنيس المطرب، ص 389 - 392. اللمحة البدرية، ص 65. رقم الحلل، ص 271. الإحاطة، ج1، ص 550. كتاب العبر، ج13، ص 484 - 494. الاستقصا، ج 3، ص 91 - 87. تاريخ المغرب وحضارته، م2، ج3، ص 35.

ثابت سُنّتَهُ من بعده في تكريمهم، فأحسن من منقلبهم وملأ حقائبهم صِلة وبرا، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع [707هـ]"[1].
كما أشار ابن خلدون إلى ذلك في التعريف بقوله:"فجهزهما حافده أبو ثابت، المالك بعده، وشيعهما إلى مصر"[2]
إلا أن عودتهم، للأسف الشديد، لم تكن أحسن حلا كما تشوفوا، إذ عكرت صفو ذلك القرصنة البَرِّية، المتمثلة في قطاع الطرق، أولئك الذين كان عادة ما يعود نشاطهم كلما انعدم الأمن في المنطقة بانعدام من يكفله من الملوك والأمراء الأقوياء، وكذلك كلما اشتد الصراع بين السياسيين المتنافسين حول المواقع الإستراتيجية الحساسة بسبب الطموحات السياسية التي لا حدود لها.
فكيف إذاً انتهى الحال بهذه السفارة المصرية العائدة من المغرب؟
تجمع مصادر التاريخ، وعلى رأسها ما كتبه ابن خلدون وابن الخطيب، على أن قافلة هذه الرحلة السفارية انتُهبت ولم ينج أصحابها إلا بشق الأنفس.
كما تتفق أيضا على أن الذي تولى كِبَرَ ذلك في الظاهر، هم أعراب القفر من قبائل بني حسن، أو قبائل بلاد حصين من المغرب الأوسط حسب اختلاف الروايات.
فما هي الروايات التاريخية المتوفرة لمعرفة كافة التفاصيل المتعلقة بذلك؟
أما ابن الخطيب الذي انفرد ببعض التفاصيل القابلة للمناقشة فيقول:"ولما بلغت الهدية إلى "المدية" من أحواز تلمسان، اتصل بهم خبر مهلك السلطان أبي يعقوب، فسلبتها العرب بذلك الموطن، ولحق الرسول بالمشرق بعد مشقة"[3].
ولا شك أن ابن الخطيب قد أخطأ حينما صرح بما يشير إلى أن خبر موت السلطان أبي يعقوب اتصل بهم وهم في طريق عودتهم، اللهم إلا إذا كان القصد موت خليفته وهو السلطان أبو ثابت، كما مرت الإشارة، لأنه هو الذي هلك عقب انطلاق عودتهم، فقد انطلقت الرحلة في شهر ذي الحجة من سنة 707هـ، وكانت الوفاة بعد شهرين في صفر من سنة 708هـ، ووقع النهب في شهر ربيع من نفس السنة، وإذا كان هذا الاحتمال والتخريج صحيحا يكون اللبس قد حصل بسبب الاسم إما خطأ وإما تحريفا.
وأما ابن خلدون الذي يتحفنا دائما بمزيد من التفاصيل بحكم القرب والمجاورة والاختصاص فيقول:"ولما انتهوا إلى بلاد بني حسين في ربيع من سنة ثمان[708هـ]، اعترضهم الأعراب بالقفر فأنهبوهم، وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن"[4].

---

[1] - العبر، ج13، ص: 470.
[2] - التعريف، ص: 372.
[3] - إعمال الأعلام، ج1، ص: 639.
[4] - العبر، ج13، ص: 470.

وقال أيضا في "التعريف" وقد بين مسلك مسيرهم بعد ما أصابهم:" فاعترضتهما قبائل حصين ونهبوهما، ودخلا بجاية، ثم مضيا إلى تونس، ووصلا من هنالك إلى مصر"[1].

قراصنة بني زيان:

قد عرفنا إذاً من تولى كبر هذه الأفعولة على الظاهر، فمن كان من ورائها على حقيقة الأمر؟

هنا أيضا لا مندوحة لنا عن ابن خلدون كمصدر، لأنه انفرد في هذه القضية بموردِ معلوماتٍ مطلع وموثوقٍ أكد له الجهة الحقيقية التي كانت من وراء ذلك، وهو ما سيشيع على ألسنة الناس لاحقا، بسبب سوء تصرف الجهة المسؤولة سياسيا ودبلوماسيا كما سنرى في النص المجلوب وأعتذر على طوله لأنه مهم وطريف للغاية.

يقول ابن خلدون:"وكان الناس لعهدهم ذلك يتهمون أن الذين نهبوهم أعراب حصين، بدسيسة من صاحب تلمسان أبي حمّو[2] لعهدهم، مُنافسةً لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والإحَن القديمة، أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: حضرت بين يدي السلطان[يقصد أبا حمّو الزياني] وقد وصله بعض الحاج من أهل بلده مُستَصحِبا كتاب الملك الناصر بالعتاب على شأن هؤلاء الأمراء وما أصابهم في طريقهم من بلاده، وأهدى له مع ذلك كوزين بدهن البلسان المختص ببلادهم، وخمسة مماليك من الترك رُماة بخمسة أقواس من قسي الغز المؤنقة الصنعة من العُرى والعَقِبِ، فاستقل السلطان هديته تلك بنسبة ما أهدوا إلى ملك المغرب.

ثم استدعى القاضي محمد بن هدية، وكان يكتب عنه، فقال له: الآن اكتب إلى الملك الناصر ما أقول لك، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب، وقل له: أما عتابك على شأن الرسل وما أصابهم في طريقهم، فقد حضروا عندي، وأبنت لهم الاستعجال حذرا مما أصابهم، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب، فكان جوابهم: إنا جئنا من عند ملك المغرب، فكيف نخاف؟ مغترين بشأنهم، يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قبائلنا.

---

[1] - التعريف، ص: 372.

[2] - أبو حمّو هذا هو: موسى بن عثمان(707هـ- 717هـ): هو أبو حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، قام بالأمر بعد أخيه أبي زيان محمد أواخر سنة 707هـ، وصفه ابن خلدون بقوله:" كان صارما، يقظا، حازما، داهية، قوي الشكيمة، صعب العريكة، شرس الأخلاق، مفرط الذكاء، والحدة، وهو أول ملوك زناتة، رتب مراسم الملك، وهذّب قواعده. فتك به ابنه أبو تاشفينَ عبد الرحمن سنة 717هـ، وقيل 718هـ. انظر: كتاب العبر، ج13، ص203- 219. رقم الحلل، ص231. اللمحة البدرية، ص72- 80.

وأما الهدية فرُدت عليك: أما دهن البلسان، فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت، وحسبنا به زيتا.
وأما المماليك الرماة فقد افتتحنا بهم إشبيلية، وصرفناهم إليك لتفتتح بهم بغداد والسلام.
قال لي شيخنا: وكان الناس إذ ذاك لا يشكون أن انتهابهم كان بإذن منه، وكان هذا الكتاب دليلا على ما في نفسه "ورَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدورُهُمْ وما يُعْلِنون"[1].
والنص لا يحتاج إلى تعليق، وإذا كان هنالك من تعليق نعقب به على الحدث وحيثياته التي جلاها نص ابن خلدون فإنه يتمثل في تصور مستقبل العلاقات المغربية المشرقية على مستوى السفارات، وكذلك تصور علاقة السلطة المركزية المرينية مع هذه الجهة المقلقة في تلمسان وأحوازها التي ستعرف صراعا دائما ومريرا بين الطرفين، ستكون له تداعيات سلبية على جميع الأطراف سواء على صعيد بلاد المغرب أو على صعيد الأندلس أو على صعيد المشرق.
ولا شك أن هذه الفعلة كان لها ما بعدها على مستوى العلاقات المغربية المشرقية، فقد أثرت على التواصل الدبلوماسي تأثيرا سلبيا للغاية وبخاصة علاقة المشارقة بالمغاربة، حيث كانت سببا مباشرا في إحجام المشارقة على المستوى الرسمي عن المغامرة في ظل الظروف الأمنية السيئة.
ولا أشك أن الذي ساهم مساهمة مباشرة في انقطاعها بسبب المخاوف، هو أبو حمو سلطان تلمسان من بني عبد الواد من خلال تلك الرسالة الخطيرة ذات اللهجة الرعناء التي تضمنها نص ابن خلدون، والتي تفتقر إلى أبسط مظاهر اللياقة الدبلوماسية والأدب الذي تقتضيه السياسة والتدبير في مثل تلك المواقف، وبخاصة بين الأشقاء والإخوة في الدين والمصير.
ولقد نبه ابن خلدون إلى شيء من هذا في عبارة بليغة ذات دلالة، من خلال قوله، والضمير يعود على المصريين الذي انتُهبوا: "فلم يُعاودوا بعدها إلى المغرب سفرا، ولا لفتوا إليه وجها، وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يُؤْبَهُ به، يهادونهم، ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئا"[2].
وإذا كان هنالك من تعليق نذيل به على نص ابن خلدون فهو لفت الانتباه إلى أن التواصل الدبلوماسي لم ينقطع على مستوى الخاطبة والمهاداة بين المغرب ومصر، وإنما الذي انقطع هو مصاحبة الأعيان والوجهاء من رجال الدولة المصرية خلافا لما كان يصنعه المغاربة وذلك ربما بسبب الخوف من المغامرة لاحتمال الهلكة عملا بالمقتضى الحديث "لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين" والله أعلم.

---

[1] - العبر، ج 13، ص: 470-471.
[2] - العبر، ج 13، ص: 470.

كانت هذه هي آخر سفارة معلومة تحدثت عنها مصادر التاريخ بإفاضة واستطراد نسبيبا، ثم تدخل المصادر في صمت يعكس ركود حركة علاقات ذات بال كهذه التي مرت، إلى أن جاء عهد السلطان الكبير الشهير، أبي الحسن علي المريني، حيث ساهم في إعادة إحيائها من جديد، كما سنعرف.

على أن الذي ينبغي التأكيد عليه كما مرت الإشارة هو استمرار حركة التواصل الجماهيري غير الرسمي إلى الحج وما إلى ذلك، بخلاف حركة انتقال ركب الحاج ذي الأبهة التي تعكس عِلِيَة القوم المنخرطين في سلك رحلته، وهذا هو الذي سيحييه السلطان أبو الحسن المريني بقوة، وبخاصة عقب استيلائه على تلمسان قاعدة المغرب الأوسط من جديد مثلما حصل على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف المذكور.

ثانيا: على عهد السلطان أبي الحسن علي المريني(732هـ-747هـ)[1]:

مقدمة:

لا يملك المؤرخون من أهل الاختصاص، الذين اطلعوا على سيرة هذا السلطان السياسية وخلاله النفسية ومنجزاته الميدانية إلا أن يُكبروه ويحترموه.

ولا أدل على ذلك من إنجازاته على مستوى الدبلوماسية المرينية على عهده، فقد أذْكَرَتْ بما سلف من إسهام عمه أبي يوسف يعقوب من تأسيس لها كما عرفنا.

ولقد استهل ابن خلدون حديثه على هذا السلطان حينما أراد أن يتطرق لمبادرته هذه بما يشير إلى جميل خلاله، وعلو همته، واقتفاء أثر سلفه في ذلك، بالإضافة إلى مواتاة الظروف الداخلية والإقليمية لذلك.

---

[1] - هو السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. يعد من أعظم ملوك دولة بني مرين، ويعد عهده من أزهى العصور المرينية. انطوى على خلال عظيمة، قلما توفرت في غيره من أمراء هذه الدولة. عرفت الدولة على عهده توسعا كبيرا. أول أمر قام به، حسم داء أخيه أبي علي عمر، الذي كان شجا في حلق الدولة، ثم حاصر تلمسان حتى استسلمت، فمحا بذلك دولة آل زيان لأول مرة. أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس برسم الجهاد، فقضى نحبه هنالك سنة 740 هـ. ثم انتقل هو نفسه إلى الأندلس، فكانت معركة طريف التي انهزم فيها المسلمون أمام النصارى. ثم غزا إفريقية سنة 748 هـ بقصد ضمها إلى المغرب، مخلفا ولي عهده ابنه أبا عنان، غير أن الابن سرعان ما استبد على أبيه سنة 749 هـ، مما فتَّ في عضد السلطان أبس الحسن، فعاد أدراجه إلى فاس لاستنقاذ الأمر، لكنه لم يفلح لقوة شوكة ابنه. وتم بينهما التفاوض، الذي أسفر عن التنازل لابنه مقابل مال دفعه إليه. توفي السلطان أبو الحسن سنة 752 هـ.

انظر: رقم الحلل، ص273- 282. اللمحة البدرية، ص 95- 96 و 105 - 108. كتاب العبر، ج13، ص 525-598. الاستقصا، ج3، ص 118-162. تاريخ المغرب وحضارته، م2، ج3، ص 38 - 52. تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني. لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون: دراسة تاريخية مقارنة، ص 29-30.

يقول ابن خلدون مفصحا عن بعض صفات هذا السلطان، وبخاصة فيما يتعلق بتدينه وتطلعه إلى المعاهد المقدسة:" كان للسلطان أبي الحسن مذاهب في ولاية ملوك المشرق، والكلف بالمعاهد الشريفة، تَقَبَّلَهُ من سلفه، وضاعفه لديه مَتينُ ديانته"[1].

أما عما ساعد على ذلك من ظروف سياسية دفعت به إلى معاودة الاتصال بالمشرق متمثلا في مصر التي ما زال، لحسن الحظ، على رأسها الملك الناصر فيجمله ابن خلدون أيضا في قوله:"ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت رِبْقَةٍ منه، واستطال بجناح سلطانه، خاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر، وعَرَّفَهُ بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابِلَتِهم"[2].

وهذه المخاطبة التي يشير إليها، وإن لم يذكرها ابن خلدون، ولا أي مؤرخ من مؤرخي الغرب الإسلامي، فإنها لحسن الحظ قد حُفظت لنا من قبل أحد الأدباء المشارقة المرموقين، وأعني به أبا العباس أحمد بن علي القلقشندي[3][ت: 821هـ] في كتابه النفيس"صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، إلى جانب حفظه لرسائل أخرى مريبنية ومصرية ترجع إلى هذين السلطانين.

أما ابن الخطيب فلم يغفل الإشارة إلى هذا التواصل لكن باقتضاب على الرغم من تسجيل عروض الهدية المرينية المرسلة مفصلة منقولة من نص نسخةِ عَقدِها المُوَثِّق، وحينما ترجم للملك الناصر في القسم الأول المتعلق بتاريخ المشرق من كتابه "إعمال الأعلام" واعدا القارئ بتفصيل ذلك عند الجزء الثالث من كتابه المخصص لتاريخ المغرب، إلا أن الاغتيال باغته، للأسف الشديد، وحال دون الوفاء بوعده فلم يكمل كتابه.

قال ابن الخطيب:"واتصلت بين الملك الناصر وبين السلطان أمير المسلمين بالمغرب الجليل القدر، الشهير الذكر، أبي الأملاك من بني مرين، وقدوة الملوك المجاهدين الصالحين أبي الحسن نضر الله وجهه، وتوجهت إليه من بابه الكريم الهدية الشهيرة على إثر تملكه مدينة تلمسان عنوة حسبما يذكر إذا أعان الله بالانتهاء إلى محل ذلك.

[1] - العبر، ج13،ص: 551.

[2] - العبر، ج 13، ص: 551.

[3] - هو القاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندى ولد بقلقشندة إحدى قرى مدينة قليوب المصرية سنة 756 هـ، برع فى علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، و عمل في ديوان الإنشاء سنة 791 هـ في عهد السلطان الظاهر برقوق. توفي سنة 821 هـ، من أهم مؤلفاته " صبح الأعشي فى صناعة الإنشا" من مؤلفاته أيضا في علم الأنساب" نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب " و " قلائد الجمان فى قبائل العربان".

ونحن نجلب عروضها ليقف على ذلك من يتشوف إليه منقولا من نسخة العقد التي وقعت الشهادة فيه على متولي قبض الهدية من خدامه"[1].

ولعل أهم ما يستنتج سواء من نص ابن الخطيب أو نص ابن خلدون آنف الذكر هو الاتفاق على أن المراسلة تمت عقب الاستيلاء النهائي على تلمسان سنة 737هـ.

ويجدر التنبيه على أنه على الرغم من ورود الإشارة إلى تاريخ أولى البعثات السفارية على عهد السلطان أبي الحسن المريني سواء في نصوص ابن خلدون، أو في نصوص بعض الرسائل المحفوظة في موسوعة "صبح الأعشى" والتي حددت في سنة 738هـ، فإن قرائن أخرى قد دلت على أنه قد تقدم الركبَ المتوجه مراسلةٌ أو أكثر أرسلت إلى ملك مصر الملك الناصر لتمهيد الطريق بإخباره، وذلك ليقوم بواجب الضيافة والتكريم والتيسير لهذا الركب الذي سوف لن يكون كسابقيه كما سنرى.

فما هي القرائن التي دلت على المخاطبة الممهدة كما زعمت؟

1. أولى هذه القرائن قول ابن خلدون نفسه والضمير يعود على السلطان أبي الحسن:"وخاطب لحينه صاحبَ مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر، وعرفه بالفتح [فتح تلمسان]، وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم.

وكان فُرانِقُهُ[2] في ذلك فارس بن ميمون بن ودرار، وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين السلف"[3].

2. أما القرينة الثانية فهي الرسائل الأربع التي حفظت في "صبح الأعشى" ثنتان على لسان أبي الحسن وثنتان على لسان الملك الناصر، فعلى الرغم من استئثار واحدة من الأربع فقط بتاريخ كتابتها، وهي على لسان سلطان المغرب، إلا أننا من خلال القراءة والتأمل نستطيع أن نستشف أن الرحلة تقدمتها مخاطبة ومجاوبة، ليس هذا مكان تحقيق ذلك.

3. وقرينة أخرى نستشفها من العادة المتعارف عليها في هذا الشأن، وقد سلفت نظيراتها قبل، وهي أن اللياقة والأدب والحيطة ومراعاة الأسباب التي يقتضيها الحزم في الأمور ذات الشأن تتطلب، التمهيد للأمر بمراسلة الجهة المصرية صاحبة الولاية على الديار المقدسة، للقيام بالحق الذي تمليه الأخوة الإسلامية، تلك التي لم تكدر صفوها شائبة من الشوائب بين المغرب ومصر على الإطلاق.

السفارة الثالثة: تاريخ انطلاقها ورجوعها: (738هـ-... هـ)

يعد ما ذكره ابن خلدون حول هذه البعثة السفارية غاية في الأهمية أولا من جهة انفراده بكثير من المعلومات المتعلقة بها والتي لا نكاد نعثر لها على نظير في أي مصدر من المصادر سواء في ذلك المغربية منها والمشرقية، وثانيا من جهة التفاصيل

---

[1] - إعمال الأعلام، ج1، ص: 661.

[2] - الفُرانِق: البريد، وقد يطلق على دليل الجيش.

[3] - العبر، ج13، ص: 551.

الطريقة التي أتحفنا بها، والمعلومات النادرة التي زودنا بها، وهو ما سنقف عليه حينما نتأمل كافة مكونات الهدية، وكذا من رافقها من الأعلام من رجال الدولة وغيرهم.

كما يجدر التنبيه، في هذا المقام ما دام البحث قد اقتضى التركيز على معطيات كل من ابن الخطيب وابن خلدون، على أن ابن الخطيب، هو الآخر، قد أورد عروض هذه الهدية مفصلة لمن أراد أن يتأملها فقد نقل ذلك من نص وثيقة العقد كما صرح بذلك، وقد تمت كذلك الإشارة إلى ذلك سابقا[1].

الهدية النفيسة ذات العروض المتنوعة.

لم تكن الهدية عادية، وإنما كانت من الحفاوة بمكان، بحيث يمكن أن نزعم أنها كانت من أحفل الهدايا وأفخمها على الإطلاق، بحيث لم يتقدم مثلها ولم يتأخر نظيرها فيما نعلمه، وكأن السلطان أبا الحسن المريني قد قصد هذا الشأو قصدا ورمى إليه عمدا، لإبراز مكانة المغرب على عهده من جهة، ولتوثيق عرى التواصل من جهة ثانية، فما هي عروضها؟

أولا: المصحف السلطاني الموقوف.

ولقد اعتنى السلطان، ومن أعانه على ذلك من أهل الاختصاص، بالمهمة غاية العناية بما دل على سلام الاعتقاد وخلوص التوجه واستقامة التدين، ولا أدل على ذلك من استنساخ المصحف الشريف باليد الكريمة، ومن عزيمة وقفه على الحرم الشريف ابتغاء الثواب والأجر، يقول ابن خلدون:"وأجمع السلطان على كتابة نسخة أنيقة من المصحف الكريم بخط يديه، ليوقفها بالحرم الشريف قربة إلى الله وابتغاء للمثوبة، فانتسخها وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها"[2].

هذا من ناحية إخراج المصحف وما يقتضيه من ضبط وإتقان حتى يصدر صحيحا لا تعتريه أي شائبة تطعن في مصداقيته ووثوقيته.

أما من ناحية إخراجه على مستوى الشكل والصورة، فكان غاية في الجمال والإحسان، يدل على ذلك قول ابن خلدون كذلك:"ووضع لها [النسخة] وعاء مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ونظم بالجوهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد المحكمة الصناعة، المرقوم أديمها بخيوط الذهب، ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان"[3].

ثانيا: الأموال الطائلة برسم الأوقاف.

لم تكن هذه النسخة من المصحف الشريف هي كل ما تضمنته الهدية من وقف، وإنما صاحبها أموال طائلة برسم شراء الضِّياع وما شاكلها لتكون هي الأخرى وقفا

---

[1] - انظر: كتاب إعمال الأعلام، ج1، ص: 661-666.

[2] - العبر، ج13، ص: 551.

[3] - العبر، ج13، ص: 551- 552.

على القراء خاصة، يقول ابن خلدون:" وأخرج من خزائنه أموالا عينا لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها"[1].

ثالثا: نباهة الركب.

لعل من أبرز المظاهر الدالة على فخامة هذه الوُصلة السفارية، المرسخة للعلاقات الدبلوماسية المتميزة، كما مر الإلماع إلى ذلك في الإشارات المتكررة، ما صاحبها من رموز الدولة وسادتها على اختلاف مراكزهم وتفاوت رتبهم، فقد كانوا كما، كما صرح نص ابن خلدون، نخبة الدولة المرينية وصفوتها، وخواص الإيالة الحسنية وكبرائها، من عريف، وعريف وزعة، وكاتب، وصاحب باب، وغيرهم، أكد على ذلك قول ابن خلدون:"وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام، من خواص مجلسه وكبار أهل دولته: عريف بن يحيى أمير زغبة، والسابق القدم في بساطه على كل خالصة، وعطية بن مهلهل بن يحيى كبير الخولة، وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين، وعريف الوزعة بدولته، وصاحب الباب عبو بن قاسم المزوار"[2].

هذا ما جاء في التاريخ أما ما ذكر في التعريف الذي هو من آخر ما كتب فقد جاء عاما إلا أنه يفي بالإشارة الدالة حيث قال في سياق كلامه عمن شارك في الرحلة:"... وجماعة من أمرائه وبطانته..."[3]

رابعا: حظية من حظايا القصر.

لم تقتصر البعثة السفارية على ما ذكر وإنما اشتملت أيضا على حظية من حظايا القصر المريني، وهي أحدى زوجات والده، كانت في مقام والدته التي توفيت وهي في غمرة الاستعداد لرحلة الحج هذه كما دلت نصوص الرسائل المحفوظة في كتاب "صبح الأعشى"[4]، أكد على ذلك ابن خلدون أيضا في تاريخه لكن بصيغة تحتاج إلى قرائن أخرى كالتي ذكرت لفهمها واستيعابها على الوجه الواضح الذي لا لبس فيه، يقول:" واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك، فأذن لها واستبلغ في تكريمها. واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه"[5].

إلا أنه في كتابه "التعريف" أضاف إضافات فسرت كثيرا مما جاء مجملا في كتاب التاريخ يقول:"ولما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان، اقترحت عليه جارية أبيه

---

[1] - العبر، ج13، ص: 552.

[2] - العبر، ج13، ص: 552.

[3] - التعريف، ص: 373.

[4] - انظر: ج7، ص: 425 فما فوق، ج8، ص: 91 فما فوق.

[5] - العبر، ج13، ص: 553.

أبي سعيد، وكانت لها عليه تربية؛ فأرادت الحج في أيامه وبعنايته فأذن لها في ذلك، وبعث في خدمتها وليه عريف بن يحيى من أمراء سويد"[1].

خامسا: عروض الهدية.

قبل الإشارة إلى ما تضمنته هذه الهدية من العروض نفيسة، لا بد من التنبيه على أن ابن خلدون حينما أراد أن يضفي المصداقية، والصحة على عروض هذه السفارة، دفعا لأي طعن قد تدفع إليه عادةُ الإنكار لما لم تجر عليه العوائد والسوابق، أكد ذلك بصيغة فيها كثير من الوثوقية والصحة، وذلك من خلال الإشارة إلى مصدر معلوماته في ذلك والذي يرجع إلى كاتب الدولة وأحد أعضاء البعثة الدبلوماسية، يقول:" ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين هذا الرسول ووعيته وأنسيته"[2].

هذا فيما يخص الوثيقة المسجلة لعروضها على المستوى الرسمي والشرعي، أما فيما يخص متضمنها على جهة التعيين والتفصيل، فقد اعتمد ابن خلدون، لأجل إثبات ما تعين عليه إثباته، على مصدر هو أقرب ما يكون إلى الدار السلطانية الذين لا يفوتهم عادة معاينة مثل هذه الأمور، يقول ابن خلدون:" وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها: خمسماية من عتاق الخيل المقربات، بسروج الذهب والفضة ولجمها، خالصا ومغشى ومموهاً، وخمسماية حمل من متاع الغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم، وأزرا معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون، وساذجا منمقا. ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللمط. ومن خرثي المغرب وماعونه ما يستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت"[3].

كما أشار ابن خلدون كذلك إلى بعض ما اشتملت عليه الهدية في كتاب "التعريف" على الرغم من عمومها لا تتعارض مع كثير مما مما ذكر في التاريخ، يقول: "... واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء، وانتقى من الخيل العتاق، والمطايا الفُرُه، وقماش الحرير والكتان، والصوف، ومدبوغ الجلود الناعمة، والأواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كل مصر من المغرب بأصناف من صنائعها، متشابهة الأشكال والأنواع، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مكيلة من اللآلىء والفصوص، وكان ذلك وقر خمس مائة بعير، وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس، بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر، واللجم المذهبة، والسيوف المحلاة

---

[1] - التعريف، ص: 373.

[2] - العبر، ج13، ص: 552.

[3] - العبر، ج13، ص: 552- 553.

بالذهب واللآلىء، كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار، وتدرجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة؛ فكانت قيمته مائة دينار"[1].

سادسا: أصداء الهدية.

لعل من أوكد المظاهر الدالة على رمزية هذه السفارة وخصوصيتها البالغة ما خلفته من آثار وأصداء لدى الجهة المصرية المملوكية التي خُصت بها حيث احتفل بالهدية السلطان صاحب مصر أيما احتفال و" تحدث الناس بهذه الهدية دهرا"[2].

كما "كان يوم وفادتهم عليه بمصر يوما مشهودا تحدث به الناس دهرا، ولقاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الكريم بحيث أمرهم صاحبهم"[3].

كما نوه ابن خلدون بما خلفته هذه السفارة وما صاحبها من أمتعة في كتابه التعريف حيث قال: "تحدث الناس بهذه الهدية دهراً، وعرضت بين يدي الملك الناصر، فأشار إلى خاسكيته بانتهابها فنهبت بين يديه، وبولغ في كرامة أولئك الضيوف، في إنزالهم وقراهم وأزوادهم إلى الحجاز والى بلادهم، وبقي شأن الهدية حديثا يتجاراه الناس في مجالسهم وأسمارهم"[4].

هذا ويمكن أن نستشف أكثر مما ذكر في مسألة أثر الهدية على نفوس الأمراء من الجهة المصرية مما ذكر في الرسائل المصرية المحفوظة في كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي فلتراجع هنالك.

أما عن تاريخ انطلاقها ومكانه فيقرره ابن خلدون من خلال صيغتين متباينتين إحداهما مطلقة وأخرى مقيدة استطاعتا في نهاية المطاف أن تُجليا الأمر غاية التجلية، فقال في التاريخ:" وفصلوا من تلمسان، وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم، فتقبلها وحسن لديه موقعها"[5]، كما قال في التعريف:"وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة "[6].

ما رجع به الركب من هدايا الملك الناصر:

أما ما رجع به الركب من هدايا ترجع إلى الجهة المصرية المملوكية فلا يملك الناظر في تفاصيلها إلا أن يشهد بنجاح المهمة السفارية المغربية، ويذعن لمصداقية النصوص الخلدونية الواصفة للهدية، والتي أحالت، كما سلفت الإشارة، على نباهتها

---

1 - التعريف، ص: 373.
2 - التعريف، ص: 373.
3 - العبر، ج13، ص: 551-552. وانظر: التعريف، ص: 373-374
4 - التعريف، ص: 373.
5 - العبر، ج13، ص:553.
6 - التعريف، ص: 373.

وفخامتها، فلا شك أن المصريين لم يألوا جهدا في مضاعفة المكافأة تنويها واحتفاء وتأكيدا للوصلة واعتناء.

بل إن التأمل في عروض الهدية المُراجِعَة ربما دل على معاني المنافسة المزرية بالمجاراة، كما دلت على مستوى التقدم الحضاري التي كانت عليه البلاد المشرقية، كما دلت على الرقي الاقتصادي والثراء المادي.

أما ابن خلدون فقد أشار إلى الهدية في كتابه العبر من خلال نص مختصر لا يعكس حجمها الحقيقي، بخلاف نصه الذي أورده في كتابه التعريف لحسن الحظ، بما دل على الخسارات الكبيرة المحتملة الناجمة عن إعراض كثير من المؤرخين عن الاحتفاء بمثل هذه الأمور، فشتان بين ابن خلدون في نصه في تاريخه وبينه في نصه في تعريفه، وشتان أيضا بين نصه في تاريخه وبين نصه في تعريفه، فهو كالفرق بين الإهمال والإعمال، أو بين الإسرار والإعلان، أو بين التذكر والنسيان.

فأما نصه في التاريخ، فجاء فيه:"وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغريبة الهيكل والصنعة بالمغرب، ومن ثياب إسكندرية البديعة النسج، المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلهم، وقد استبلغ في تكريمهم وصلتهم، وبقي حديث هذه الهدية مذكورا بين الناس لهذا العهد"[1].

وأما نصه في التعريف فقد بلغ فيه الغاية، كما سنرى، على غير عادته في مثل هذه الأمور، ففسر من خلاله كثيرا مما جاء مجملا في النص المذكور يقول:"ولما فصل أرسال ملك المغرب، وقد قضوا فرضهم، بعث الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم، وكانت أصنافها: حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية، تحمل كل عام إلى دار السلطان، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار... وعشرة من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الصقيلة، ولجمها كذلك "[2].

ولعل من أعجب ما أتحف به سلطان المغرب أغربه الخيمة العملاقة المصنوعة في بلاد الشام على منوال القصور السلطانية الفخمة ذات المرافق الملوكية المتعددة كما يلوح من النص الذي جمع أوصافها والتي هي من إنشاء ابن خلدون الذي عاين أجزاءها وشاهد ما تألفت منه، حيث أكد على هذه الحقيقة من خلال قوله:"وعاينت يومئذ أصناف تلك الهدية"[3].

وصف ابن خلدون هذه الخيمة التحفة بقوله:"...وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور، تشتمل: على بيوت للمراقد، وأواوين للجلوس والطبخ، وأبراج للإشراف على الطرقات، وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض، وفيها تمثال مسجد بمحرابه، وعمده، ومئذنته؛ حوائطها كلها من خرق الكتان

---

[1] العبر، ج13، ص:553.
[2] - التعريف، ص: 374.
[3] - التعريف، ص: 374.

الموصولة بحبك الخياطة مفضلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها. وكان فيها خيمة أخرى: مستديرة الشكل، عالية السمك، مخروطة الرأس، رحبة الفناء، تظل خمس مائة فارس أو أكثر"[1].

كما لم يفت ابن خلدون أن يسجل إعجاب الناس من أهل تونس من الهدية المُغْربة حال مرورها بها وعرضها على سلطانها قبل استئناف مسيرها إلى المغرب، وكذلك إشارته إلى الطاقم التقني المشرقي الخبير بنصبها بما دل على فراهتها وفرادتها وربما تعقيدها، يقول:"ومرت هذه الهدية بتونس، ومعها الخدام القائمون بنصب الأبنية، فعرضوها على السلطان بتونس، وتوجهوا بها إلى سلطانهم، وبقي التعجب منها دهرا على الألسنة"[2].

لم تكن هاتان السفارتان آخر السفارات سواء تلعق الأمر بعهد السلطان أبي الحسن المريني أو تعلق الأمر بمن أعقبه من السلاطين وإنما تبع ذلك سفارات أخرى أكدت على التواصل المتبادل بين البلدين، حيث أكد ابن خلدون في أكثر من موضع على استمرارها طيلة فترة حكم الملك الناصر حتى عد بذلك المصدر الوحيد والمطلع، لا بل ساهم في نجاح عدد منها على سبيل الاستنصاح والاستشارة من قبل الجهات المصرية كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

فقال مؤكدا التواصل والضمير يعود على السلطان أبي الحسن:"واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين"[3].

ولقد أكدت المتابعة والاستقراء للنصوص المختلفة التي وردت في "لتاريخ"و"لتعريف" على تباينها من حيث التوسع والإيجاز إلى أنها بلغت الست رصدت كلها لأنها تمت على عهد ابن خلدون وفي الفترة كان مقيما فيها ببلاد المشرق، وهذا من حسن الحظ، فلو يقيض القدر لابن خلدون الرحلة إلى المشرق والوفاة به لربما كان مصير كل المعلومات المتعلقة بذلك مجهولا لأنه يعد المصدر الوحيد تقريبا في ذلك كما نبهت.

ولقد أكدت المتابعة والاستقراء للنصوص المختلفة التي وردت في "التاريخ"و"التعريف" على تباينها من حيث التوسع والإيجاز إلى أنها بلغت الست سفارات رُصدت كلها لأنها تمت على عهد ابن خلدون، وفي الفترة التي كان فيها مقيما ببلاد المشرق، وهذا من حسن الحظ، فلو لم يقيض القدر لابن خلدون الرحلة إلى

---

1 - التعريف، ص: 374.
2 - التعريف، ص: 373- 374.
3 - العبر، ج13، ص: 553.

المشرق والوفاة به لربما كان مصير كل المعلومات المتعلقة بذلك مجهولا لأنه يعد المصدر الوحيد تقريبا في ذلك كما نبهت.

خاتمة:

وإلى هذه المحطة أجدني مضطرا إلى التوقف وذلك لسببين اثنين:

أما الأول فيتعلق بالرغبة في تلافي الإطالة التي يبعث عليها الوفاء بمتابعة جميع السفارات وما تلعق بها من أغراض مختلفة، ونعد بالوفاء بذلك في بحث آخر أكثر إطالة وإفاضة، وحسبي أنني قدمت نماذج مهمة تكشف عن حجم التواصل وعمقه بين المغرب والمشرق على عهد دولتين عظيمتين كان لهما أثر كبير في التاريخ الوسيط.

وأما الثاني فيتعلق بما يقتضيه العنوان الذي اخترته لهذا البحث والذي يتعين بموجبه التقيد بنصوص ابن الخطيب وابن خلدون كليهما دون الاقتصار على واحد منهما مما يعني الاكتفاء بما غطته نصوصهما في فترة زمنية واحدة تضطرنا التوقف عند ما ذكره ابن الخطيب بحكم تقدم تاريخ وفاته على تاريخ وفاة ابن خلدون.

قائمة ببعض أهم المصادر

ابن أبي زرع: علي بن أبي زرع الفاسي.**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973م.

المراكشي: العباس بن إبراهيم.**الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** ، دار الكتب، الدار البيضاء الطبعة الملكية، الرباط، طبعة سنة 1974.

المراكشي: عبد الواحد.**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، دار الكتب، الدار البيضاء الطبعة السابعة، 1978. طبع وتعليق وتصحيح: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي.

الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق: ذ. جعفر الناصري وذ. محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، سنة 1954م.

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد بن لسان الدين الغرناطي الأندلسي.**الإحاطة في أخبار غرناطة**، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية: 1393هـ- 1973م.

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد بن لسان الدين الغرناطي الأندلسي.**اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثالثة 1400هـ-1980م. ونسخة أخرى، تحقيق محب الدين الخطيب المطبعة السلفية بالقاهرة، 1347هـ.

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد بن لسان الدين الغرناطي الأندلسي.**رقم الحلل في نظم الدول**، المطبعة العمومية بحاضرة تونس المحمية، سنة 1316هـ-1916م.

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد بن لسان الدين الغرناطي الأندلسي.**تاريخ إسبانيا الإسلامية** أو القسم الثاني من كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، 1956م.

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد بن لسان الدين الغرناطي الأندلسي.**تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط** أو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب، تحقيق وتعليق د.أحمد مختار العبادي و ذ.محمد إبراهيم الكتاني، نشر وتوزيع دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1964م.

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد بن عبد الله، لسان الدين الغرناطي الأندلسي. **إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام**، القسم الأول، تحقيق: رابح المغراوي، تحت الطبع.

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد.**الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1407هـ- 1987م.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1412هـ- 1992م.

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد.**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة: 1398هـ- 1978 م.

أبو الشامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل.**كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1918هـ- 1997م.

ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين**، تحقيق: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 1964م.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.**سير أعلام النبلاء**، تحقيق مجموعة من الأساتذة، تحت إشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى: 1401هـ-1981م، الطبعة الثانية: 1402هـ-1982م.

نفسه :**تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1410هـ- 1990م .

نفسه. **دول الإسلام**، تحقيق: حسن إسماعيل مروة ومحمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1999م.

نفسه. **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: محمد سعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدوت تاريخ الطبع.

ابن خلدون: ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد.**كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، نشرة: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

نفسه.**التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، منشورات دار الكتاب اللبناني، طبعة سنة1979.

ابن كثير: إسماعيل بن عمر. **البداية والنهاية**، تحقيق: أحمد أبو ملحم، علي نجيب عطوي، فؤاد السيد، مهدي ناصر الدين، علي عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة: 1988.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف.**المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، تحقيق د.محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف.**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر وهي نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي.**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق: يوسف علي طويل، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1407هـ- 1987م.

العسقلاني ، ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق: سالم الكرنكوي الألماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ الطبع.

العسقلاني ، ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي.**إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ**. تحقيق: محمد عبد المعين خان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1406هـ-1986م.

ابن العماد: أبو الفلاج عبد الحي.

ابن العماد .**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد المعروف بابن العماد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى: 1406هـ- 1986م.

عماد الدين الأصفهاني، **الفتح القسى فى الفتح القدسى - حروب صلاح الدين و فتح بيت المقدس**، دار المنار، تاريخ الطبعة: 2004

الصفدي: خليل بن أيبك. **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ- 2000م.

السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن**تاريخ الخلفاء**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1417هـ- 1996م.

ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن.**تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق: محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، مصر، طبعة: 1976م.

العيني: بدر الدين محمود.**عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة: 1407هـ-1987م.